

الزيتون: شجرة وطقوس

ياسين بو دومة: باحث في الجغرافيا

الزيتون شجرة متوسطة بامتياز يمتد مجالها على ضفتي البحر المتوسط ، من اسبانيا وجنوب فرنسا غربا الى الشام شرقا. ووجد الزيتون البري في المغرب منذ اقدم العصور، ضمن اشجار الغابات والاحراش، ثم ادخل الرومان اصنافا اخرى ، وتقنية عصر الزيتون التي ما زالت معتمدة الى اليوم.

كما هو الشأن بالنسبة للعديد من القبائل بإقليم تازة، تاونات، وزان... تعتبر شجرة الزيتون من أقدم الأشجار بالمنطقة، ويشكل الزيتون والزيت أهم مادة غذائية وعلاجية على الإطلاق.



تقسيم المجال الى ثلاثة مواقع: الغابة في القمة، السكن والاشجار المثمرة في المنحدر ثم الزراعة في الثلث الاخير

لهذا نجد سكان القبيلة يولونها الأهمية التي تستحق من حيث العلاقة والتعامل معها في طقوس خاصة لا تتوفر في علاقة الإنسان البرنوسي مع الأشجار الأخرى. لهذا تأتي هذه الدراسة كمحاولة أولية للوقوف على أهم المراحل في العلاقة بين الشجر والإنسان.

I - الغرس

تقول المقولة الشهيرة " مَا تُصَاحِبَ حَتَّى تُجَرِّبَ وَمَا تَطْرَبَ (تَضَرَّبَ) حَتَّى تُقَرِّبَ، وَمَا تَغْرَسُ حَتَّى تُزَرِّبَ" من خلال هذه المقولة يمكننا الاستنتاج أن أول شيء يجب القيام به من أجل الغرس هو اختيار المكان، والاختيار مرتبط بنوعية التربة والتي بدورها تتحكم في مادة ونوعية مادة الغرس.

نميز بين نوعين من المغروسات التي يتم غرسها بقبيلة البرانس:

أولاً: المغروسات ذات المنفعة الغذائية ومنها : الزيتون، اللوز، التين(الكرموس)، العنب، الهندية ...

ثانياً: الأشجار ذات منافع مختلفة: صفاف، عرعار، أوكلبتوس، تايدة...

لعل أهم شجرة عند أهل البرانس عموماً هي شجرة الزيتون، فمنذ غرسها إلى أن يتم وضعها على المائدة من أجل الأكل "تَسْسِنُ" التي هي أخف من "تَعْمَسُ" تمر عبر عدة مراحل، سنحاول أن نستعرضها لأهميتها وارتباطها بعادات خاصة عند البرانس.

كما سبق الذكر، إن اختيار الأمكنة مع مراعاة نوعية التربة من الأهمية بمكان ويمكننا أن نفرق بين نوعين من أشجار الزيتون الأولى تكون سقوية أي يستطيع الفلاح أن يسقيها، والنوع الثاني بوري أي مرتبط بما تجود به السماء.

II - التلقام: (la greffe)

اكتشف الفلاح البرنوسي تقنية تهجين الأشجار (التلقام) من أجل تحسين

الإنتاج من خلال تحميل شجرة على أخرى من نفس الفصيلة. ينجز هذه العملية فلاح ذو تجربة وقد يكون مختصاً يسمى الغراس. يقطع كل أغصان وفروع شجرة البري، ويحتفظ بأحسن فرع، يشق قشرته ثم يدخل فيه برعماً على أهبة التفتح، يكون نزع بقشرته من شجرة زيتون. بعد مدة يتفتح البرعم على حاملته الجديدة، وسرعان ما ينمو مستفيداً من قوة الشجرة التي قطعت بقية فروعها، ومنه تتفرع شجرة الزيتون الجديدة على جذع شجرة البري.

III - إقامة الحوض "التحواط"

وهي أن يقوم الفلاح بحفر ما حول الزيتون بالفأس ثم يجعل من التربة حوضاً على شكل نصف دائرة يسمح للشجرة التي تتوسطه باستقبال مياه الأمطار أو العيون أثناء عملية السقي.

IV - التشذيب "التنقية"

وهي عملية إزالة بعض الأغصان الزائدة والتي تشكل عائقاً عند عملية الجني، لكن هذه العملية لا تتم بشكل منتظم لأن البرانس ومنذ القديم تركوا الحرية الكاملة لشجرة الزيتون كي تكبر وتحتل المجال حولها وفوقها.



تختلف أشجار الزيتون من حيث علوها من منطقة إلى أخرى فهناك أشجار يتراوح علوها من 5 إلى 15 متر، وغالبا ما تكون هذه الأشجار قديمة جداً، يفوق عمرها 160 سنة، حيث ارتبط غرسها بالسكان الأولون بالمنطقة وهناك نوعاً آخر لا يتعدى علوه 3 إلى 5 أمتار، ويطلق على هذا النوع (زيتون دلفلاحة) أي الذي مصدره

الشتلات المقتناة أو الموزعة من طرف مصالح وزارة الفلاحة عكس النوع الأول الذي يكون مصدره الشجرة الأم حيث يتم تقطيع أجزاء منها وغرسها.

٧- السقي: النوبة دَلَمَا

إنها النظام والكيفية التي يتم بواسطتها توزيع الماء الذي يكون مصدره في غالب الأحيان **العيون**، وفي بعض الأحيان الوديان. كيفية التوزيع معقدة وضاربة في القدم ولكنها تتم عن ذكاء وقدرة الإنسان البرنوسي على التعامل مع أهم عنصر للحياة بمنظور دقيق.

كمثال على كيفية توزيع الماء سأورد نموذجا لهذا التقسيم الخاص بماء **عين الثلاثاء بدوار عين "تلاتا" بفرقة أولاد جرو** التي هي جزء من **قبيلة بني فصوص بالبرانس شمال تازة**.

نوبة الماء لهذه العين مقسمة الى عشرة أيام، كل يوم تستفيد منها عائلة كبيرة من حيث عدد الأسر والأفراد وهي على الشكل التالي:

- اليوم الأول : البومعاويون
- اليوم الثاني : أولاد بلكرطيط
- اليوم الثالث : أولاد بوزيان
- اليوم الرابع : أولاد سي حمودة

تصنف هذه العائلات الكبرى ضمن فئة الشرفاء أو المرابطين حيث نزحت في القرون السابقة من المغرب الشرقي عكس العائلات الأخرى التي نزحت لاحقا من القبائل المجاورة مثل مرنيسة، أوربة، بني بويغلا...

- اليوم الخامس: اللحاحة.
- اليوم السادس: مراحة .
- اليوم السابع: بواعشة.
- اليوم الثامن: بوارمة .
- اليوم التاسع: الغزاليون .
- اليوم العاشر: بوحودي.

يقسم اليوم بين أفراد العائلة الواحدة وتعتمد أوقات الصلاة كحد بين -نوبة- شخص وآخر مثلا: من الظهر إلى العصر ومن العصر إلى المغرب ومن المغرب إلى الصباح التي تسمى "نوبة الليل".

٦- عملية الجني " نفاطة الزيتون"

بقبيلة **البرانس** تتميز ملكية أشجار الزيتون بوجود نوعين متكاملين من الملكية: أحدهما فردي وآخر جماعي قد يكون مشتركا بين مختلف الأسر المكونة للعائلة الكبيرة أو مع عائلات أخرى التي قد يكون من بينها الرباع أي الشخص الذي قام بغرس أرض في ملكية الآخرين.

أما توزيع أشجار الزيتون على المساحة الجغرافية، فقد تكون الأشجار محددة وقائمة بذاتها في بقعة أرضية واحدة أو يقع أرضية منفصلة عن بعضها البعض في ملكية أسرة واحدة. وقد تكون المساحة أكبر قد تصل إلى أربع كيلومترات مربعة مغروسة بكاملها وتسمى "الجَنَان"، وهي في الغالب ملكية مقسمة على عدد من العائلات الكبيرة التي تتوافق على تعيين "الحطاي" أي حارس الجنان مقابل نسبة معينة من كمية الزيتون عند جنيه. إلا أنه ومنذ سبعينيات القرن الماضي، انقرضت هذه المهنة مما فتح المجال للمراهقين والأطفال لتصيد الفرص سواء بالليل أو بالنهار لسرقة الزيتون. وهنا تحضر إحدى الطرائف التي عاشها ويتداولها إلى حدود اليوم سكان أحد الدواوير الماهول بالسكان والمتوفر على جنان كبير.

فرغم المراقبة الدقيقة، وكعادته، استطاع أحد المراهقين تسلق شجرة الزيتون الكبيرة. لكن حظه هذه المرة كان سيئا للغاية حيث فاجأه مالكها المعروف بميزات قد تبدو متناقضة: الحكمة، الهدوء، الكرم، الصرامة...

وأمام إصرار المراهق على عدم الاستسلام والنزول من فوق الشجرة خوفا من المصير المأساوي الذي ينتظره، مفضلا البقاء الليل كله فوقها إلى حين ظهور منقذ في الصباح، بدأ الرجل الواثق من نفسه في تنفيذ تهديده بقطع الجذع قائلا: بعد سقوطكما، سأدفنك بحوضها بعد قتلك، أما الشجرة فسأجرها إلى منزلي لتتحول إلى حطب. فما كان على المراهق إلا النزول أملا في عفو جزئي بدل الموت.

بعد أيام من هذا الحدث، التقى الرجل بأم الولد الشقي، فسألها إن كانت تتوفر على معلومات عنه خاصة وأنها مسنة وأعيائها البحث عنه. بعد جوابها بالنفي، طلب منها مرافقته إلى منزله وهي كلها ثقة في الرجل المعروف بكرمه وعطفه على "الدراوش".

بمجرد دخول المنزل، فتح الرجل باب إحدى الغرف التي وحده يتوفر على مفتاحها، وأخرج المراهق منها موجها الكلام إلى الأم التي اختلط عليها الإحساس بالفرح والدهشة فقال: لقد باعته بسرق الزيتون واعتقلته طوال هذه المدة بهذه الغرفة. يأكل ويشرب لكن يأخذ حصته اليومية من الضرب بالعصا "وأية عصا"! فما كان من الأم إلا أن تفرح ببقاء ولدها وأن تتقبل بصدر رحب "عَدْلٌ أَعْمَرٌ".

تزهّر (أَدْرَكَلْ) شجرة الزيتون في شهر أبريل ومع نهاية شهر أكتوبر وبداية نونبر تكون حبة الزيتون قد نضجت وحاد موعدا قطافها، وتجد الفلاح البرنوسي متبها خاصة إذا كانت الغلة وفيرة، حيث يعد العدة لعملية الجني.

كانت ولاتزال عملية جني الزيتون بطريقة تقليدية تعتمد بشكل مباشر على العامل البشري، الذي يعتمد بدوره فقط على عصا خشبية مختلفة الطول حسب علو الزيتون وتسمى بـ"بوصالح" وحامله يسمى "النفاط" والذي يقوم بعملية جمع حبات الزيتون المتساقطة بمساعدة جميع أفراد العائلة كبارا وصغارا مع اللجوء في بعض الأحيان إلى اليد العاملة المأجورة.



وبما أن أشجار الزيتون تكون مجتمعة في مكان واحد (الجنان، الجنانات) فالعملية تتم في طقوس أخوية حميمية ممزوجة بالمرح والضحك الناتج عن "المهاودة" أي تبادل الحديث "بالمعاني والعين..."

في هذا الإطار تحدث بعض الطرائف حيث على الكبار رجالا ونساء تشديد المراقبة على المراهقين والأطفال الذين يتحينون الفرص القليلة لوضع بعضا من المنتوج جانبا بعيدا عن الأعين في مطامير "مطمورة" قصد أكله لاحقا بعد تحلته أي إضافة الملح إلى كمية من حبات الزيتون وتغطيتها بأوراق الأشجار والتراب.

وقد يعمل بعضهم على بيع ما جمعه خلسة إلى صاحب "الكوربي" أي دكان الدوار من أجل الاستمتاع بلعب القمار وتناول الحشيش أو الكيف ونسيان قساوة البرد والمطر وحتى الثلج في بعض الأحيان.

أمام حالة الخصاص في مادة الزيت الذي يستهلك كمادة أساسية طوال السنة جرت العادة قديما أن تعمل النساء على جني كمية من الزيتون الذي لم يكتمل بعد لونه الأسود فتعمل على "دقه" وعجنه في "الكصعة" أي الوعاء من الفخار.

وبعد القيام بغليه في الوعاء المعدني "البرمة" يترك الليل كله كي يفرز مادة الزيت التي يتم استخلاصها خلال اليوم الموالي وهو المعروف بزيت **عَلَوَانَة**.

VII - عملية التخزين

طريقة التخزين فردية حيث يجمع كل مالك غلته في منزله، ويضعها في مكان يسمى "أُكْرَن" وهو مكان مبني على شكل دائرة أو مربع أو حفرة في الأرض، وأهم ما يميز عملية التخزين هو وضع الملح مع الزيتون لحفظه (باش ما يضيعش الزيتون).

مع مرور الزمن عوّض الكيس البلاستيكي (الميكيا) **أكرن** في خزن الزيتون، فهو أسهل في الملأ والتفريغ.



الأكياس البلاستيكية تعوض أكرن

مدة التخزين هي الأخرى تغيرت، فإلى حدود الأمس القريب كانت مدة التخزين معروفة من وقت الجني شهري نونبر ودجنبر إلى حدود شهري أبريل وماي. لماذا؟ جواب الفلاح: "باش يرقد الزيتون ويتحيد مَنو الدرد". ولماذا شهر أبريل أو ماي؟ يجيب الفلاح: "حتى يسخن الحال باش يعطي الزيت". ومن المعروف أن برودة الطقس في فصل الشتاء قاسية جدا في منطقة البرانس.

أما في السنوات الأخيرة ومع بروز المعصرة العصرية تغير مفهوم التخزين، فمباشرة "مَن الزُّونة لَرَحَى مَا زال بَرَقَوِي" وقلائل هم الذين ما زالوا محتفظين بالعادة القديمة.

VIII - عصر الزيتون



ما تبقى من الرّحى التى فقدت مكانتها ومكوناتها

إلى حدود أواخر القرن العشرين وبمجرد حلول شهر أبريل أو عندما ترتفع حرارة الطقس عموماً، يبدأ الفلاح في الاستعداد لعصر الزيتون "التطحان". ولهذه العملية ضوابط وقواعد لا يمكن أن يحيد عنها. فأول عمل يقوم به هو تأمين المعصرة "الرّحى" إن كان الفلاح غير مالك لها، وتسمى هذه العملية في لغتنا المحلية "شَدَان الرّحى" حيث يذهب عند صاحب المعصرة ويحدد معه موعداً ليقوم بالتطحان. ولتأكيد عملية حجز الرّحى يضع فوقها في مكان ما علامة قد تكون حجراً أو قليلاً من حبات الزيتون أو الشامية أي ذلك الوعاء المصنوع من الحلفاء الذي يوضع فيه الزيتون بهدف عصره. للإشارة فأول من يستعمل الرّحى هو صاحبها في الأغلب وتسمى العملية "تَصْلَاب الرّحى" أي تجريبها وإصلاح ما يمكن أن يكون قد أتلف لتكون جاهزة للتطحان. بعد تحديد الموعد، يقوم الفلاح يوماً قبل ذلك بغسل الزيتون في منزله و "تَسْمِيره" أي وضعه تحت أشعة الشمس حتى صلاة العصر، وهناك من لا يقوم بهذه العملية إلا في صبيحة يوم "التطحان". وفي المعصرة قبل أن يوضع في "الكصّة" يغسل في الصهريج الموجود في الرّحى التي بالضرورة يجب أن تكون على مقربة من أحد مصادر المياه: عين، بئر، واد...

IX - العشور

ماذا يقصد به؟ لُعْشُور أي العشر 10/1 هو المقابل الذي يؤديه الفلاح عن غلته لصاحب الرّحى مقابل استخدامه لها. وحتى في غياب هذا الأخير هناك ثقة كاملة حيث يقوم المستغل بفرز العشر من كمية الزيتون قبل البدء في عملية العصر أي التطحان.

X - الصدقة

كرم الإنسان البرنوسى لا يختلف فيه اثنان، فالصدقة مما قسم الله للفقراء والمساكين، وكذا لعابري السبيل حيث تعطى من الزيت أثناء التطحان.

XI - حصة الفقيه

"عَبِّي لَيْطَرُو دَلْفُقيَه لَرَحَى". إنها الجملة التي سمعها والأمر الذي نفذه العديد ممن درس بالمسيد. فعدا عن الشرط والنوبة اللذين يستفيد منهما فقيه المسجد، جرت العادة على أنه يستفيد من كمية الزيت كلما قام أحدهم بعصر الزيتون. فغالباً ما يكون الفقيه "بَرَانِيَا" لكن مقيماً بالمسجد طوال مدة الشرط وهو ما يدفع بالسكان إلى القيام بهذه الالتفاتة التي هي في حد ذاتها طلباً للبركة التي يتوفر عليها حامل القرآن.

ومن المظاهر الاحتفالية بهذا اليوم لدى البرانس هي إعداد المرأة البرنوسية أكلا خاصا. ففي الصباح تعد " فطيرة" من الحجم الكبير والمطبوخة في "الْقَرَّاح" وغالبا ما تعد أكثر من واحدة لتبقى في الرحى بحيث كل من مر ولو بعيدا عن الرحى يدعى ليأكل "الْفَطِيرَةَ وَالزَّيْتِ مِّنَ النَّعِيرِ وَأَتَايَ دِيمًا مَوْجُودًا".
وبما أن شهر ابريل وماي من فصول الربيع البهية حيث تكتسي الارض حلة غاية في الجمال والروعة والطيور تبني أعشاشها في تغريد جميل يتناغم مع خرير المياه الجارية والمنبتقة من كل مكان، وألوان الورد و الأزهار وأوراق الأشجار على اختلاف الأشكال والألوان...وبما أن الفول يكون قد بدأ يعطي ثماره فلا توجد وجبة أشهى من " التَّلْتُولَةُ بِالزَّيْتِ الْبَلَدِيَةِ فِ الرِّحَى" وهي وجبة خليط من كسكس مصنوع من دقيق الشعير، والفول بقشرته الخارجية الطرية والزيت الجديد.

XII- تخزين الزيت

مع اقتراب صلاة العصر تكون العملية قد أشرفت على نهايتها حيث ينقل الزيت والفيتور "بقايا الزيتون" إلى المنزل ويتم تخزين الزيت في الغالب في غرفة معزولة في المنزل لا يصلها إلا قلائل من أهل البيت ليكون بعيدا عن أعين الحاسدين وتسمى الغرفة "بيت لخزين".

يمكن أن يستمر " التطحان" لأكثر من يوم حيث أن كمية المنتج هي التي تتحكم في عدد أيام التطحان التي قد تصل إلى 15 يوماً.

XIII- الزيتون والرحى مصدر الهام للفن : الفراجية

كما هو حال مختلف الأنشطة ومظاهر الحياة بالمنطقة شكل الزيتون والرحى ... مجالا واسعا وغنيا وخصبا يلجأ إليه الفراجي (الفنان) البرنوسي لإغناء مخيلته وقصائده المرتجلة خلال مناسبات الفرح، سواء بالاستعارة أو بالتشبيه.

فهذا **علال د ادريس** شاعر الغزل والمرأة بامتياز أي **نزار قباني** المنطقة وخلال حفل **بقبيلة أوربة** أواسط ثمانينيات القرن العشرين يقول في مقاطع من "زرعة" طويلة شكل الزيتون مجال الهام لأرتجال القصيدة التالية:



علال يتوسط من اليمين الى اليسار: البوعلاوي، الهرنان، رشيد، البالي، الهركال، ثم الزوبع

- الزيتون وَلَدٌ وَرَوَّاطٌ
- أَسِيدِي الْحَاجِ يَامُولُ النِّشَاطِ
- هَذِ عَطَّتْ لِبَلَايِزِ وَشَاطِ
- مَنَّمْ لَاقِيَا لَكَرْقَاطِ

- أَعْلَالُ كَيْفَ الْمَسْقَطِ
- يُطَيِّحُ لَكَ مِنَ الرَّأْسِ وَأَنْتِ لَقَطٌ
- أَأَشُوفُ بِالشَّيْخِ يَابْنَ حَمُو إِنْ كِ عِنْدِي لَفُؤَيْسٌ كَرْمَاطٌ
- وَخَلِينِي نُبَلِّغُ اسْوَاقِي لِلْحَوَاطِ

في هذا المقطع الغزلي يوظف علال الفراجي القاموس المرتبط بنشاط سقي الزيتون وجنيه : حبات الزيتون، المسقط أي العصى (بوصالح)، الساقية، الفأس، الحوض، تلقاط الزيتون (جمعه).

يستعمل التشبيه بكثافة : المرأة والزيتون والحوض كمصادر متكاملة للجمال والخصوبة والعطاء، والرجل - علال، الحاج، الشيخ بن حمو - هو الطرف والفاعل الثاني الذي عليه تحويل الخصوبة إلى إنتاج لكن ما يرمي إليه **علال** من وراء هذا كله هو تأكيد وتشبيته مكانته كشاعر غزل بامتياز وتحديد الشاعر **الرهيف** المدافع الصلب عن المرأة وشرف قبيلة اوربة التي يتواجد الحفل بمجالها. تحييد الرهيف يمر كذلك عند علال عبر استمالة صاحب الحفل وكبراء القبيلة وإشراكهم في الاستمتاع والاستفادة من نتائج الغزل: علال يسقي الشجر ويجنيه وصاحب الحفل وغيره يجمعون حبات الزيتون المتساقطة لاستهلاكها لأنها ملكهم.

وبقبيلة بني فقوص ينهي علال الزرعة / القصيدة قائلاً :

الْخَلَاتِيَّةُ كَامِلِينَ فَلَاحَةَ وَلِ كَاسِبِ شِ زَيْتُونُ خَابُو لِرَحَى

الزيتون هو المرأة والرحى هي المجموعة الغنائية التي بقيادة



علال توظف الغزل في قصائدها. والجميع يعرف دور الغزل في التأثير على نفسية المرأة التي بمجرد ما تنتهي القصيدة/الزرعة تطلق العنان لحنجرتها -وليس لسانها- في موجة من **الزغاريد** القوية والرقيقة: إنه الزيت.

قبيلة الطايفة وفي حفل آخر، وأمام عدم تجاوب البعض مع **علال** كان جواب **عبد القادر الهرنان**:

بَعْضُ شِ فَلَاحَةَ

وَخَا اذْكَوْنُ عِنْدَمَ الرَّحَى

أَوْ مَا اذْكَوْنُ عِنْدَمَ بُوْرَحَى

وَاللَّهِ لَا اَعْطَاوْكَ حَتَّى حَفْتَيْنِ دَ الْمَلْحَةِ (الزيتون الأسود المملح)

وَخَا ذَبَاتٌ قَدَّامَ الْبَابِ رَاقِدٌ فَاتِحَةَ

عدم استجابة بعض الحاضرين الذين نعتهم **علال** بكبار الفلاحة، دفع **بالهرنان** إلى تصحيح الأمور. فإذا كانت الرحى مظهرًا يعكس مستوى الفلاح من حيث ملكية أشجار الزيتون، وإذا كان تملك الرحى يرمز كذلك إلى الغنى ويؤكد استقلال مالكة عن الآخرين فإن ذلك حسب **الهرنان** لا يعني أن أي مالك لهما كريما.

فمالك الرحى "خَاصُّو يَعْطِي الْخَيْرُ حَسَبِ التَّعْبِيرِ الْمَحَلِيِّ" يفقد احترام وتقدير الناس إذا لم يكن كريما عبر توفير على الأقل الشاي والخبز "الفطيرة المحلية" للذين يستغلون من غير سكان الدوار الرحى التي غالبا ما يكون موقعها قريبا من منزله.

ملحق

بعض مكونات الرحى: النقيير، الكصعة، الباسط، المغزل، القوقنة، القراص، الميدة، الصاري، الميد، العقرب،

الشبابة، السهم، السلبة، الشامية، الطعمة...المصنوعة من الحجر والخشب المحلي والدوم والحلفاء قبل تعويضها باخرى من الحديد ثم الاستغناء عنها كليا مع المعصرة العصري.

